حنا بطاطو، وداعاً.

يحتاج الإنسان إلى قدر كبير من الصبر لقراءة كتابات حنّا بطاطو (١٩٢٦ ـ ٢٠٠٠)، فمعدلات سقوط المطر في سوريا على مدار عقود مختلفة ـ التي يفرد لها في كتابه الأخير *فلاحو سوريا ونسل وجهاء الريف الأقل ثراء » (١٩٩٩) ـ عددا من الجداول، ويستغرق في نقدها والتعليق عليها، إلى جانب نسبة وفيات الأطفال وجداول الخصوبة، وزيادة عدد السكان، تستهلك ما يملك القارئ المدرّب من طاقة على المثابرة.

وبالقدر نفسه، يمكن استخدام هذه الملاحظة للتعليق على عمله الكبير *الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق » (١٩٧٨) وبقية دراساته، التي تحظى بمكانة رفيعة لدى المختصين في العالم، وتكاد تكون مجهولة في العالم العربي، رغم أن كتابه عن العراق تُرجم في ثلاثة أجزاء إلى العربية: *الطبقات الاجتماعية في العراق ما قبل الجمهورية » (١٩٨٨) و* الحركات الشيوعية في العراق » (١٩٩١) و* الشيوعيون والبعثيون والضباط الأحرار »(١٩٩٢).

لكن الفائدة المنتظرة من القراءة تبرر الجهد، إذا وضعنا في الحسبان أن بطاطو يحاول رسم *خارطة جينية » للعالم العربي في القرن العشرين. فخلف الهيجان الاجتماعي، والحروب الداخلية، والانقلابات العسكرية، وصراع النخب والأيديولوجيات المتناحرة، ثمة أسباب موضوعية تمكن الباحث من فهم ما عاشه عرب المشرق، وما حلموا به، وما عانوا منه منذ بداية القرن التاسع عشر حتى أواخر القرن العشرين.

يستخدم بطاطو العوامل الاقتصادية، ومفهوم الطبقة لفهم آليات تشكل النخب العربية،

وتحليل دوافعها السياسية، والثقافة التي تحكم موقفها من التحديث الاجتماعي، وطبيعة نظام الحكم. ولعل من نافلة القول التذكير أن توظيف تلك المنهجية في البحث يحمل دلالات ماركسية صريحة. وتلك هي المفارقة الأولى في الجهد البحثي لحنا بطاطو، الذي استخدم أدوات تحليلية ماركسية دون اعتناق الماركسية نفسها. وفي سيرته ما يدل على اهتمام دائم بالاتحاد السوفياتي والشيوعية بشكل عام.

فقد عاش سنواته الأكاديمية الأولى في ذروة الحرب الباردة، ونال إجازات جامعية نتيجة أبحاثه في هذا المجال. حصل في عام ١٩٥٣ على إجازته الجامعية الأولى من مدرسة العلاقات الخارجية في جامعة جورجتاون الأميركية، وكان تخصصه في *تاريخ واقتصاد وسياسة الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة وعلاقتهما الخارجية *. كما حصل من جامعة هارفارد عام ١٩٥٥ على درجة الماجستير وكان تخصصه * الدراسات الإقليمية ـ الاتحاد السوفياتي *. وحصل من الجامعة نفسها على درجة الدكتوراه عام ١٩٦٠ عن بحث حول* نظرية السياسة، المؤسسات السياسية، والسياسة الدولية، مع تركيز على المشرق العربي والاتحاد السوفياتي *.

ولعل المفارقة الثانية هي المزج بين مفهوم الطبقة الماركسي، ومفهوم النخبة الشائع في الدراسات التاريخية الأميركية. ففي كتابيه الكبيرين عن سوريا والعراق محاولة لفهم الظروف الموضوعية التي أدت إلى ظهور نخب معينة، وحكمت وصول بعضها إلى سدة الحكم في البلدين، بقدر ما تحكمت بسياستها الداخلية والخارجية. ففي هذا المفهوم تحدث التغيرات الاجتماعية بفضل عملية انتخاب وإقصاء تعيشها النخب في عملية تحوّل دائمة للاستئثار بالسلطة والبقاء فيها. وغالبا ما تتكون النخبة بفضل المزاوجة بين النفوذ السياسي والمال.

يمكن تفسير المفارقات بطرق مختلفة. ولعل في حياة حنا بطاطو وسيرته العلمية ما يبرر تفسيرها كنوع من الحرص على استقلالية أدوات البحث، وحرص الباحث على عدم الوقوع في قبضة التحزّب الأيديولوجي أو السياسي. فقد عاش حياته كأستاذ جامعي أولا وأخيرا. عمل في الجامعة الأميركية في بيروت رئيسا لدائرة العلوم السياسية ١٩٦٢ ـ ١٩٨٢، وشغل كرسي الشيخ صبّاح السالم الصبّاح للدراسات العربية في جامعة جورجتاون ١٩٨٢ حتى تقاعده في عام ١٩٩٧. وقد تعرّض لمحنة في عام ١٩٩٠ عندما حاول الكويتيون الضغط على الجامعة لطرده من منصبه، بعد انتقادات وجهها للسياسة الكويتية في حرب الخليج. لكن الجامعة لم ترضخ للضغط، كما رفض بطاطو التراجع عن موقفه.

يذكر الكاتب اللبناني منح الصلح، في مقالة نشرها بعد وفاته، أن شخصا وشى به ذات يوم لدى الأمن اللبناني العام بتهمة الشيوعية. وقد قامت الشرطة بمداهمة بيته فعثرت لديه على كتب كثيرة عن الشيوعية، وعندما سأله المحقق لماذا يحتفظ بهذا القدر من الكتب الشيوعية، غضب بطاطو من صيغة السؤال طالبا تعديله : قل هذا كتاب عن الشيوعية ولا تقل هذا كتاب شيوعي. لا توجد كتب شيوعية وأخرى غير شيوعية.

كما يروي فيليب خوري، رئيس الجمعية الأميركية لدراسات الشرق الأوسط، في ذكرياته عن أواخر الستينات في الجامعة الأميركية في بيروت، كيف استخدم بطاطو طريقة غير تقليدية في التعليم لإرغام الطلاب على استيعاب الدروس الأسبوعية. كان يطلب من أحد الطلاب بطريقة عشوائية الجلوس على مقعد في مواجهة بقية الطلاب، ويطرح عليه الأسئلة بطريقة سريعة ومقتضبة، فإذا تلعثم أو فكّر طويلا، طلب من طالب آخر تقديم الإجابة المناسبة. وفي هذا السياق يعترف خوري أن تلك الطريقة كانت مرعبة بقدر ما كانت ذات فائدة كبيرة في الحرص على التحضير لدرس بطاطو.

وربما كانت كتابات بطاطو هي الدليل الأوضح على مدى اهتمامه بالفروق الدقيقة بين الأشياء والظواهر. ففي كتابه الأخير عن سوريا لاحظ ازدياد عدد السكان من مليون ونصف المليون في عام ١٩٢٢ إلى ١٣,٥ مليون عام ١٩٤٤. وقادته تلك الملاحظة إلى دراسة المجتمع السوري منذ أوائل القرن التاسع عشر لفهم طبيعة التطورات السياسية التي شهدتها سوريا في النصف الثاني من القرن العشرين.

لم يكتب مقدمة لكتابه، ولا حرص على وضع خلاصة عامة لتحليله التاريخي ـ الديمغرافي، بل اكتفى بسرد حقائق وأرقام بطريقة محايدة. ترجع أسباب الزيادة الديمغرافية الهائلة، حسب رأيه، إلى بدايات القرن التاسع عشر، عندما ازداد الإنتاج الزراعي. وقد أسهمت عدة عوامل في تحسين شروط الزراعة في سوريا منها: تحسن الشروط الصحية العامة، مما أدى إلى تقليص وفيات الأطفال، واستخدام وسائل تقنية وأسمدة جديدة، وتحسن الشروط الأمنية، وظهور الطرق والمواصلات الحديثة.

أسهم تحسن الزراعة بدوره في نشوء فئات فلاحية جديدة، وفي تحوّل الفلاحين إلى قوة سياسية، سرعان ما أسفرت عن نفسها من خلال الانخراط في الجيش، والانتقال إلى المدن، والمشاركة الواسعة في الحركات السياسية الجديدة. ومن صلب هؤلاء سيخرج قادة سوريا في النصف الثاني من القرن العشرين.

وفي هذا الصدد، يكرّس بطاطو فصولا مدهشة لدراسة مجتمع الفلاّحين، الذين يرفض تصنيفهم في فئة واحدة، بل يرى أنهم يشكلون ظاهرة اجتماعية ـ اقتصادية شديدة التعقيد، ومتعددة الأبعاد، تتكون من فئات مختلفة، وتتسم بخصوصية نظرتها إلى الكون والى الآخرين. وللتدليل على هذا التعقيد والتنوّع، يدرس بطاطو عادات الفلاّحين وأمثالهم وحكاياتهم الشعبية، والفكر اللاهوتي المهيمن في أوساطهم. وينال هذا التدليل أهميته من فرضية واضحة في الكتاب: أسهمت مختلف التطوّرات موضوع البحث في تسييس الفلاّحين، وفي ترييف السياسة. وإذا كانت الفصول الأخيرة حول سوريا الحديثة لا تعنينا، في هذا السياق، فإن ما يستدعي اهتمامنا ينحصر في المنهج.

ولعل منهج بطاطو في تحليل المعطيات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية يعيد إلى الذهن منهج عالم الجغرافيا المصري الكبير جمال حمدان، الذي حاول رسم *خارطة جينية » لمصر

في كتابه الموسوعي الضخم، الذي يبلغ بضعة آلاف من الصفحات *شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان» انطلاقا من تفرّد موقعها الجغرافي وخصوصية مناخها. ففي الكتاب المذكور محاولات مستفيضة ومضنية لتحليل تطوّر انتاج الحبوب في الريف المصري، مثلا، ودور العوامل المناخية في تحسن الإنتاج الزراعي، مما يجعل الكتاب خارج متناول القارئ العادي أو غير المختص، لكنه يرفعه إلى مرتبة المراجع التي لا يمكن الاستغناء عنها في فهم وتحليل المجتمع المصري.

لكن ما يجمع بين الرجلين (وهما من طراز خاص في الثقافة العربية) التشابه في سيرة الحياة، أيضا. فقد كرّس كلاهما حياته للعلم، في بيت يعيش فيه مع أمه بلا زوجة ولا أولاد، وأنفق حياته بين الجامعة والكتب، بعيدا عن أجهزة الإعلام والسياسة بمعناها اليومي، حرصا على مشروعه البحثي الكبير. ولعل بطاطو كان أكثر حرصا من جمال حمدان على التزام الحياد، وعدم تجاوز الحدود المتعارف عليها في العمل الأكاديمي.

وتلك مفارقة أخرى تحتاج إلى تفسير، على خلفية أصله الفلسطيني، واضطراره للعيش في المنفى بعد احتلال فلسطين في عام ١٩٤٨. وُلد بطاطو في القدس عام ١٩٢٦، واشتغل قبيل النكبة موظفا في إدارة الانتداب البريطاني في فلسطين. ويبدو أن سنوات اللجوء الأولى في الولايات المتحدة لم تكن سهلة بالمعنى الاقتصادي، حيث تقلّب في مهن مختلفة منها العمل في مصنع للسجاد (هناك روايات متضاربة تقول أنه كان مديرا للمصنع، وبعضها يُرجّح عمله كسائق شاحنة) للإنفاق على نفسه ومواصلة تعليمه.

ورغم أن معظم المثقفين الفلسطينيين، الذين حصلوا على شهادات عالية في الغرب، وحققوا مكانة مرموقة في الأوساط الأكاديمية، أقاموا في فترة أو أخرى من حياتهم صلات مع منظمة التحرير الفلسطينية، أو أظهروا اهتماما بالمسألة الفلسطينية، إلا أن بطاطو نأى بنفسه عن الأوساط الفلسطينية. وهي حقيقة تحتاج إلى تأمل بالنسبة لشخص أنفق عمره في دراسة حركات راديكالية مثل الحركة الشيوعية في العراق، وحركة البعث في سوريا والعراق، كما أقام في لبنان منذ مطلع الستينات حتى أوائل الثمانينات، الفترة التي شهدت ذروة النشاط الفلسطيني في ذلك البلد.

ذكر فيليب خوري أن بطاطو دعا رئيس بلدية القدس قبل الاحتلال، أنور الخطيب، إلى الجامعة الأميركية لتعريف طلاّب العلوم السياسية بما تتعرض له القدس من مخططات إسرائيلية، كما دعا في مرة أخرى الدكتور يوسف صايغ ليحاضر حول الجوانب الاقتصادية للصراع العربي ـ الإسرائيلي. وقد روى الكاتب الفلسطيني خيري منصور في مقالة نشرها قبيل وفاة بطاطو، كيف رأى ارتجاف فكيه وانهمار الدمع من عينيه أثناء عرض أحد الأفلام التسجيلية عن فلسطين. لذلك، لا يستهدف تفسير المفارقة تحليل مشاعر الانتماء أو العاطفة الوطنية، فتلك مسألة تقع خارج سياق الموضوع، بل التفكير في الديناميات الخاصة، أو المسوّغات العقلية التي حكمت موقفه وسلوكه.

ويمكن، في هذا الصدد، عقد مقارنة بينه وبين جبرا إبراهيم جبرا، الروائي الفلسطيني، الذي أقام بعد النكبة في العراق، وأنفق عمره في الكتابة الروائية والنقدية، إلى جانب الإسهام في تأسيس حركة الفن الحديث في العراق، دون الانخراط في السياسة بمعناها اليومي، أو اعتناق أيديولوجية متحزّبة. لم تكن روايته الأولى * صيادون في شارع ضيق » التي كتبها باللغة الإنكليزية، عن فلسطين، بل كانت محاولة لرصد التحوّلات الاجتماعية في بغداد الأربعينات. وما زالت حتى اليوم من أفضل المصادر الأدبية حول مخاض مدينة عربية تقف على مفترق للطرق في تاريخها.

ويبدو أن ما حكم علاقة جبرا بنفسه كفلسطيني تمثل في عبارة لم يكف عن ترديدها، ناهيك عن تجسيدها، في عدد لا يحصى من المرّات. فقد التقى ذات يوم المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي، صاحب النظرية المعروفة حول نشوء الحضارات وسقوطها، الذي قال له: *مصيركم أيها الفلسطينيون مصير علماء الإغريق بعد سقوط القسطنطينية الذين نشروا المعرفة في العالم اللاتيني، قد يكون هذا قدركم، وقد يكون فيه حتفكم ».

وبصرف النظر عن المبالغة في المضمون، أو حتى ضرورة العثور على قدوة تبرر قدرهم، فإن تجربة اللجوء، والعيش في المنافي، وفقدان ضمانات الاستقرار، كانت من أهم الدوافع التي حرّضت الكثير من الفلسطينيين على التفوّق، كما أضفت على سلوك المثقفين منهم قدرا من الكوزموبوليتية لم تتمكن حتى أيديولوجيا الستينات الراديكالية، رغم عنفها وجاذبيتها، من القضاء عليه. بهذا المعنى، تتسق سيرة حنا بطاطو، الفلسطيني، مع مشروعه البحثي الكبير. فقد كان المشرق العربي حقل تخصصه، كما كانت غاية هذا التخصص تشخيص الحاضر أولا وأخيرا، بلغة متقشفة، موضوعية ومحايدة، ومفاهيم حادة كمبضع الجرّاح. وإذا تصادف أن كان في هذا العمل ما يسهم في تمكين عرب المشرق من فهم واقعهم بصورة أفضل، فإن نبوءة توينبي لن تشكو ندرة الأمثلة الحيّة.

تبقى مسألة أخيرة تتصل بميراث حنا بطاطو وإسهامه الفكري الكبير. فمن الشائع في الفكر السياسي العربي تشخيص أزمة الأنظمة العربية القائمة استنادا إلى حقيقة افتقارها إلى الشرعية. فقد نظر معظمها إلى نفسه ـ ومازال بتنويعات مختلفة ـ باعتبارها كيانات مؤقتة على طريق الوحدة العربية، كما نشأ معظمها نتيجة لميراث الحقبة الكولونيالية، التي انتهكت تاريخ المنطقة وجغرافيتها. لذلك، لم تنشأ الدولة العربية الحديثة استنادا إلى منطق الدولة ـ الأمة على غرار نموذج الدولة القومية الأوروبية، بل نشأت في معظم الأقطار العربية استنادا إلى تسويات إقليمية بين القوى الكولونيالية السابقة.

وقد أدى هذا الأمر إلى اختلاط نادر المثال، في لغة الأدب السياسي العربي، بين مفهوم الوطني والقومي. حيث أسقطت صفة القومية عن الحركات التحريرية في حدود الإقليم باعتبارها وطنية، وظلت صفة القومية حكرا على حركات أو أنشطة عابرة للحدود الإقليمية.

لكن العمل الكبير لحنا بطاطو يمكننا من فهم الأمر على نحو آخر: كانت الحركات الوطنية

في المشرق العربي، في سوريا والعراق على الأقل، حركات تستهدف استكمال وتعزيز مشروع الدولة القومية في حدود الإقليم. ورغم أن أيديولوجيا القومية العابرة لحدود الإقليم كانت السمة السائدة في خطابها السياسي، إلا أن مشروعها الحقيقي كان ضمن الإقليم نفسه. وبهذا المعنى تبطل النظرية التقليدية حول الشرعية. وتكتسب دلالة الدولة ـ الأمة في حدود الإقليم مشروعية أكبر.

وربما نتمكن ـ اعتمادا على بطاطو، الذي تجنب التعميم والنتائج القاطعة دائما ـ من فهم أسباب إخفاق المشاريع المختلفة للوحدة العربية، بمعزل عن النظريات التقليدية حول عرقلة القوى الخارجية لتلك المشاريع. فقد فشلت لأن شروط الدولة ـ الأمة لم تكتمل في حدود الإقليم في معظم الأقطار العربية. وربما أصبح استكمال تلك الشروط مقدمة لنجاحها في المستقبل، على غرار النموذج الأوروبي، دون تجاهل الخصوصيات اللغوية والثقافية وهي أكثر عمقا في العالم العربي من أوروبا الغربية.

ويمكن أن نفهم، أيضا، الحروب الأهلية الداخلية والأصولية المستحدثة، ليس باعتبارها جزءا من صراع النخب السياسية على السلطة، بل باعتبارها مخاضا ثقافيا يعتبر شرطا من شروط صياغة الهوّية الثقافية والاجتماعية لدول قومية في طور التكوين. وبهذا المعنى، لا يبدو تمركز السجال حول المجتمع المدني والعلمانية والديمقراطية، ناهيك عن أسئلة الهوّية أو التراث والمعاصرة، في تلك الدول مجاراة لمنطق العصر وحسب، بل تعبيرا عن حاجات موضوعية اقتضتها درجة معينة من نضج الدولانية في هذا الإقليم أو ذاك.

لم يقل بطاطو بتلك النتائج، لكن المدافع عنها سيجد في ميراثه الكثير من الشواهد، ولا شك أن آخرين سيجدون فيها دلالات ونتائج مختلفة، فتلك ميزة الميراث الكبير، الذي غاب صاحبه قبل أشهر قليلة، لكنه ترك لدينا ما سيبقيه حاضرا في الثقافة العربية إلى زمن طويل.

حسن خضر